

ايوانية البحري

للمرحوم الشيخ عبد القادر المغربي

- ٣ -

(فهو يُبدي تجلداً وعليه كَأَكْلٍ من كلاك الدهر مُرمي)
(الكلكل) الصدر ، والبمير إذا برك وألقى ثقله على الأرض فانما يكون
مركز الثقل تحت كلكه ، فاتخذ البلغاء الكلكل مثلاً لشدة الوطأة وقوة الضغط
(مالي ولدهر يرميني بكلكله)

و (مرمي) اسم فاعل من أرمى الشيء ورماً : ثبت ورسخ ومنه رست السفينة .
والمعنى أن إيوان كسرى كالرجل العاقل يبدي الصبر والتجلد على شدائد الدهر
أمام الناس ، حالة كونه رازحاً تحت كلكل عظيم من كلاك الدهر أطبق عليه .
(لم يعبه أن يزر من بسط الديباج واستل من ستور الدمقس)
(بزه) سلبه ومنه المثل (من عز بزاً) وربما كان أصل معنى فعل (بزه)
سلبه بزه أو بزته أي ثيابه . ثم عم استعماله في كل سلب . ومن التوارد
في ذلك كلمة (dérober) الفرنسية فانها بمعنى سلبه وبديهي ان أصل معناها
سلبه ثوبه . و بزاً واستل في بيت البحري مجهولان . والدمقس الحرير أو الأبيض
منه . بقول : إن الإيوان لم يعبه أن سلب وجرد من بسط الديباج ولا أن استل
وعرسي من ستور الحرير . أي اذا كان في زمن سكانه الأكامزة مفروشاً
بالبسطة ومجلاً بالستائر وأصبح بعدهم معري منها فليس ذلك بمز به ، ولا
حاطاً من قدره . إذ أن له الآن من جلالاته وروعته ما يكسوه مهابة في النفوس
فوق مهابته مذ كان مغشى بالحرير والديباج .
(مشمخيراً تعلوا له شرفات رفعت في رؤوس رضوى وقُدس)

- ٤٢٢ -

المشمخر من الجبال : المرتفع العالي ، ومنه قول البديع في قصيدة بشر بن عوانة :
 فخرٌ مضرٌ جاً بدمٍ كأنّي هدمتُ به بناءً مشمخراً
 و (رَضوى) بفتح الراء جبل بين مكة والمدينة على مسيرة يوم من ينبع .
 و (قُدس) بضم القاف جبل عظيم بأرض نجد : أي إن ذلك الإيوان عال
 مرتفع كأنما سُرفاته مرفوعةٌ على رؤوس ذبلك الجبلين . وهذا كقول عنتره
 في البطل الذي قتله :

(بَطَلٌ كأن ثيابه في سرحه)

أي إنه طويل القامة كأن ثيابه ملقاة على شجرة من شجر السرح .
 (لابساتٌ من البياض فما تُبصرُ منها إلا غلائلُ برُس)
 قوله (لابسات) صفة للشرفات . وُشرفات القصر أعاليه المحيطة بإجّاره .
 والإجّار السطح وجمعه أجاجير . والمراد من (البياض) الثياب البيض ، يقال
 فلان (يلبس السواد والبياض) . والغلائل جمع غلالة : الثوب . والبرُس بكسر
 الباء وتضم : القطن يقال (طارَ له أُنعام كالبرس المنذوف) والأُنعام الزبد الذي
 يظهر على فم البعير . وهو كالرؤال للفرس و كالألماب للانسان . وفي بعض النسخ
 أيضاً (لفائف برس) جمع لفيفة ما التفت واجتمع من الشيء . ورواية الغلائل
 أحسن الروايتين ، وقد جاءت قافية (البرس) في معارضة شوقي مضافةً الى
 العصائب مذ قال :

(جَلَّ التلجُ دونها رأسٌ (شيرى) فبدأ منه في عصائبِ برُس)

والعصائب جمع عصاية : مندبل بهصب به الرأس والعمامة نفسها تسمى عصاية أيضاً .
 أما (شيرى) فهو اسم جبل ويظن ان اسمه أعني شيرى محرف من كلمة (منشار)
 العربية وكانوا يطلقونها أي كلمة منشار على سلسلة الجبال . وجاءت (برس)
 أيضاً في لزوميات المعري قال .
 لباصي البرسُ فلا أخضرٌ ولا خلوقِيٌّ ولا أدُكُنُّ

يقول : إنه يلبسُ من الثياب البسيط : فلا يلبس ثياب الشهرة ولا ثياب أهل الترف ولا الصوفية .

ومعنى بيت البحتري أن شرفات الايوان تجلبت من الكانس ثياباً بيضاً ، فلا يقع نظرك منها إلا على غلائل قطنٍ أبيض ، أو على (كُتَبِب) غزل من قطن أبيض أو على سبائب أي لفائف من قطن أبيض مندوف . أما شوقي في شعره فجعل الثلج على رأس جبل (شيرى) عمامةً تتخذةً من نسيج قطنٍ وهو ما يسمى الشاش أو يشمق بالتركية .

(ليسُ بدرى أصنعُ إنسُ لجنٍ سكنوه أم صنعُ جنٍ لانسٍ)
أي ان الناظر الى الايوان يحار فيمن بناءه ولاي غرضُ بني هل هو مما بنته الانس للجن أو الجن للانس . أما إنه من بناء الجن للانس فظاهر لأن البشر اعتادوا أن ينسبوا كل بناء نفخ عظيم الى صنع الجن ، من ذلك قول النابغة في تدمر :

إلا سليمان إذ قال الإله له قم في البرية واحدها عن الفند
وخيس الجن إني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد

فلا عجب اذا توهم البحتري أن الايوان من صنع الجن بنوه للأكامرة . أما توهمه في كونه من بناء الانس للجن فغزاه أن البشر إنما يسكنون في قصور وأبنية معهودة لنا . وضخامة الايوان وارتفاع طاقه وعلو قصوره وجدرانها كل ذلك لم نعهد مثله لسكنى البشر ، فلم يبق إلا أن الانس بنوه لمخلوقات غريبة من غير جنسنا وهم الجن ، فهو يرتاب في أن الأكامرة كانوا يسكنونه ويقول في نفسه ربما كان الجن هم الذين سكنوه وعمروه .

(غير أنني أراه يشهد أن لم يك بانیه في الملوك بينكس)
(النكس) الضعيف الدنيء الذي لاخير فيه . وضمير أراه يرجع الى الايوان فالبحتري يقول إني مها ترددتُ في أمر صانع الايوان وفي غرضه

من تشييد هذا البناء العظيم فلن أتردد في حقيقةٍ يشهد لي بها الإيوان نفسه
وهي أن بانيه لم يكن نكسًا دنيثًا ضعيفًا في الملوك . فحن إذا لم نعرف الباني
عرفنا عظمته من أثره الذي تركه لنا وهو هذا البناء .
إن البناء إذا تعاضم قدره أضحي بدلًا على مقام الباني

(فكأنني أرى المراتب والقو م إذا ما بلغت آخر حسبي)
قوله (فكأنني الخ ٠٠٠) شروع في وصف مشهد آخر من مشاهد الإيوان لم يره
بعيني رأسه وأنا رآه بعيني خياله وتوهمه ، ذلك أنه تخيل كسرى في مجلس له
عام اتخذه في فضاء الإيوان حيث لا تُظلمهم سقوف ولا كنان . وقد شهدت
هذا الاجتماع طبقات مختلفة من رعيته : عظماء المملكة ووفود الأقاليم والندماء
والخطايا والقيان وغيرهم من لفهم هذا الزحام الذي تمثله الشاعر في نفسه ،
كأنه مشاهد ملوس . ويحتمل أن يكون رأى صورة في جدران الإيوان
تمثل هذا المجلس تمثيلًا رآه بعيني رأسه . لكنه بالطبع ليس حقيقيًا ومن ثم
جاز له أن يقول فكأنني وكأنني أي كأنني أرى كسرى وقومه بأنفسهم لا برصومهم
وصورهم . فتكون أرى بصربة وقد حذف كلمة (حقيقة) التي هي حال من
المفعول . ويؤيد هذا المعنى البيت الآتي (وكان الذي يريد اتباعًا الخ ٠٠٠) على
ما سيأتي في شرح معناه . فهو يقول إنني إذا أجهدت نفسي واستنفدت آخر
قوة من قوى شعوري وحسي كنت كأنني أرى مراتب منسقة درجات
درجات وقد نبواها القوم بحسب منازلهم وأقدارهم : من وزراء كسرى وموابذته
وأساورته وعظماء مملكته . والراتب في قول الجتري أراد بها جمع مرتبة وهي
صدر المجلس وتكون المراتب بمعنى مناصب الدولة كما قال الرضي :
ومن عجب صدود الحظنا عنا إلى المنعمين على الخطايا
ففاقوا في المراتب والمالي وفقنا في الضرائب والسجايا
ثم شرع (أي الجتري) في وصف ما رآه من اجتماع الناس في هذا المجلس
خيالاً محضاً أو صوراً مخيلة فقال :

(وكان الوفود ضاحين حسرى : من وقوف خلف الزحام وجلس -)
 (ضاحين) جمع ضاحي من ضحاً يضحون أو من ضحى يضحى إذا برز
 للشمس ووقعت عليه أشعتها . و (حسرى) جمع حسير وهو الكليل المعبي
 و (وقوف) جمع واقف و (جلس) بكسر الجيم المجالس . وهو يقع على
 الواحد والجمع والمؤنث والمذكر . بقول الشاعر إنه حين طاف في أقبية
 الإيوان وتخلل ساحاته مثل له الخيال أو أنه رأى رسماً يمثل جلوس كسرى
 الى عظماء مملكته في تلك الساحات وخيل اليه أن وفوداً من أقاليم بلاده شهدوا
 حقيقة ذلك الاجتماع فكان منهم المجالس للملك ومنهم من لم يجد محلاً لجلوسه
 فبقي واقفاً خلف الزحام . وكلهم بارزون للشمس تعجبون معيون . وتعبهم
 الذي تخيله الشاعر إما بسبب مجيئهم من بلاد بعيدة فيكونون قد أتتهم المسير
 والإسراع فيه لئلا يفوتهم شرفُ شهود هذا الاحتفال . أو أن تعبهم ناشئ
 عن فرط الزحام مع التعرض لحرارة الشمس . وفي أكثر النسخ (خنس)
 بالخاء والنون مكان جلس بالجيم واللام . و (جلس) رواية معجم البلدان
 طبع أوربا . أما (خنس) فهي في النسخ الأخرى . واشتقاقها من خنس
 إذا تأخر وتنجى . والخانس المتأخر : فيكون المعنى أن رجال الوفود لما لم
 يجدوا مكاناً يجلسون فيه ظلوا واقفين خلف الزحام . ومنهم رجال تأخروا
 وتنجحوا عن أولئك الواقفين ، إذ لم يمكنهم أن يبلغوا محل الزحام أيضاً . ويحتمل
 أن يكون قوله (خنس) من خنس من بين أصحابه إذا استخفى وتوارى ،
 ويكون المراد بهؤلاء طائفة النساء اللواتي كن مستخفين عن الأنظار وبينهن
 القيان كما يأتي :

(وكان القيان وسط المقاصير يرجهن بين حواء ولعس -)
 لم يقف الخيال بالشاعر عند حد مارآه في الساحة الكبرى وإنما تخطى به
 الى القيان أي المغنيات اللواتي كن في المقاصير جمع مقصورة وهي الغرف

المقصورة على النساء لا بدخها غيرهن . فالشاعر رأي بخياله أو بعينه صورة
 خيآت له القيان في المقاصير وهن 'يرججن في الغناء أي 'يرددن أصواتهن في
 حلوقهن تفننا وإبداعاً في الصنعة . ثم وصف الشاعر هؤلاء القيان بالحسن
 والجمال واقصر من أوصاف حسنين على وصف الحوّة والأعس فقال : إنهن كن
 (حوا) جمع حواء (لعسا) جمع امساء . والحوّة والأعس وكذلك الأمي
 ثلاثتها بمعنى واحد : وهو أن يضرب احمرار الشفة الى السواد فإن ذلك من
 المستحلح عند العرب ، ويظهر أن جدتنا الأولى (حواء) كان فيها هذا الضرب
 من الملاحظة فكانت شفتها ضاربتين الى السواد ولذا سميت (حواء) . وكذلك
 جدنا الأول آدم (صلوات الله عليه) كان أسمر اللون لأن اشتقاق اسمه من
 (الأدمة) وهي السمرة . أما ان الحوّة والأعس والأمي بمعنى واحد فدليله
 قول ذي الرمة :

لمياء في شفتها حوّة لعس وفي اللثا ، وفي أنيابها شنب

فهو قد قال عنها انها لمياء أي ذات لى ثم فسّر لنا معنى اللمياء فقال ان
 في شفتها وفي لثاتها حوّة وكأنه نظر بعين الغيب اليها والى قصورنا في فهم
 معاني كلمات لغتنا فأبدل من الحوّة كلمة (اللعس) تفسيراً لها . أما (الشنب)
 فهو بردّ ورقة وماء في الأسنان . وقد جمع أحمد شوقي في معارضته لهذه
 القصيدة بين الكلمتين أيضاً فقال :

لا تحسّ العيون فوق رباها غير حورٍ حو المرأش لعس

ومن أنواع البديع نوعٌ يسمى (الأحاجي) وهي من قبيل الألفاظ : تمدد
 الى كلمتين مستقلتين وتساءل مخاطبك على كلمتين مرادفتين لها بحيث يتألف منها
 كلمة واحدة مستقلة في معناها فنقول له مثلاً أحاجيك في (انهمض انهمض)
 فنقول (فقم) وهو اسم للإثناء المعروف . ونقول له أحاجيك في (صار في
 الليل مدة) فنقول في الجواب (مراحين) جمع مراحان بمعنى الذئب . ويسألك
 عن (اسكت ارجع) فنقول صهباء ، ثم يسألك شعراً :

يامن له حسن لفظٍ ثني عليه المثاني
 مامثل قول المحاجي أحوى الشفاه جفاني

جوابه (المستقلاني) وهو امم ابن حجر المحدث المشهور فقوله : (أحوى الشفاه) يراد فيه (ألمس) وقوله (جفاني) يراد فيه (قلاني) فإذا جئت بين (ألمس) و (قلاني) تألف منها اسم واحد مستقل وهو (المستقلاني) . والفرض من هذا البيان إثبات أن الحوة والألمس شيء واحد وأن قول الجعزي بين (حوة وألمس) هو من قبيل عطف التفسير . وبناءً على هذا يرد على الجعزي اعتراض نحوي أو لغوي وهو أن كلمة (بين) لا تضاف إلا إلى متعدد وقد وقعت (أي بين) في كلامه مضافة إلى شيء واحد لا متعدد فهو يقول إن تلك القيان من ما بين نساء حوة ألمس أي سمر الشفاه ثم صكت وكان من المنتظر أن يقول كن بين نساء حو ألمس ونساء آخر حمر الحدود مثلاً . وقد يقال في الجواب انه ذكر الموصوفات بالحوة والألمس وسكت عن الباقيات ليذهب الذهن في تعيينهن كل مذهب ، كأنه قال بين حوة ألمس وبين غيرهن من ذوات الأوصاف المختلفة . هذا وربما كان المعنى الصحيح للبيت غير ما ذكرناه وهو أن (بين) هنا ليست لتتبع القيان وتقسيمهن إلى ألمس وغير ألمس وإنما هي هنا ظرفية بمعنى وسط والمراد بالحوة الألمس نساء القصر كهن فالشاعر يقول إن المنقيات كن يرددن أصواتهن في وسط نساء القصر اللواتي كان أظهر أوصافهن وأملحها حوة شفاهن وألسها .

(وكان اللقاء أول من أمسس ووشك الفراق أول أمسس)

مغزى هذا البيت والذي بعده دقيق جداً : وهو منتزع من خيال غاية في السمو والطف المأخذ : ذلك أن الشاعر لما تمثل أو رأى كسرى وعظماة مملكته ووفود أقاليمه ونساء قصره كأنهم أمامه حقيقة يرى صراتهم وأوضاعهم بل كلهم وإعياءهم ويسمع قياتهم كما يرى الحو الألمس من نساتهم - تمثل

م (٦)

ذلك كله قريباً من زمنه الذي هو فيه حتى كأن لقاءهم واجتماع بعضهم لبعض كان أول من أمس أي قبل ثلاثة أيام ثم تفرقوا أول أمس أي قبل يومين . أما استعمال أمس وأول من أمس فقد أوضحه صاحب لسان العرب بقوله (تقول ما رأيتُه مذ أمس - فإن لم تره يوماً قبل ذلك قلت ما رأيتُه مذ أول من أمس . فإن لم تره يومين قبل ذلك قلت ما رأيتُه مذ أول من أول من أمس) . ولكن الظاهر من هذا الكلام أنه لا فرق بين (أول أمس) . و (أول من أمس) أما في شعر البحتري فيُفهم أنه فرّق بينها فهو جعل اللقاء والفرق في يومين : (أول أمس) الفراق و (أول من أمس) اللقاء . فأول أمس قبل يوم . وأول من أمس قبل يومين . فهل له دلائل من كلامهم ؟

(وكأنت الذي يُريد اتباعاً طامعٌ في لحوقهم صباح خميس)
 هذا البيت كما قلنا آنفاً يدل على أن الشاعر يريد أنه رأى بعينه صورة مرسومة على الجدران تمثل له كسرى وقومه : فهو يرى صورهم بعينه لكن المصور كان حاذقاً جداً حتى جعله يتخيل أنه كان يراهم حقيقةً بأجسامهم وأشكالهم وأوضاعهم الطبيعية ، ولذلك كان يقول كأني وكأني . وفي هذا البيت أبدع الشاعر في خياله أي إبداعاً ، فهو يقول إن الذي يراهم مصورين أمامه تجذته نفسه باتباعهم واللحوق بهم . لكن المصور أنقن تصوير الأشخاص من حيث القرب والبعد والمسافة فمن ينظر إليهم يظنهم بعيدين عنه مع أنه لو أراد لمسهم بيده لفعل . وقد حدثني صديقنا الشيخ عبد القادر المبارك (رحمه الله) بمناسبة هذا البيت أن مرصع التمثيل تكون عادةً مصدرّة بستانر يُنقش عليه رسم شارع مستطيل وتكون على جانبيه الدور والقصور . ومن دقة الصنعة في التصوير يحسب الرائي أن هناك مسافةً حقيقيةً ممتدةً بين الأبنية الشاهقة القائمة على الجانبين مع أنك لو لمست الستار لوقعت يداك على أصابع منقوشة على سطح مستوي . قال وقد اتفق لي يوماً أن كنت على مرصع من هذه المرصع

في بعض المدارس فتمشيتُ نحو الستار وكنتُ أصدمه بجيبي ظاناً أن أممي
منفسحاً للسير . ثم انتهتُ فجأة للأمر فوقفتُ متعجباً . والحاصل أن مصور
مجلس كسري أبدع في تصويره حتى يخيل للرائي ان الرسم بعيد عنه وأنه
إذا أراد اللحوق بالقوم الذين فيه لا يطمع أن يبلغهم إلا في صبيحة اليوم
الخامس من سيره نحوهم .

* * *

(عُمَرَتُ للسرور دَهْرًا فصارتُ للتمزي رباعهم والتأمي)
رَجَعَ الشاعر في هذا البيت الى صحوه من خياله ، واستأنف الكلام على
الإيوان نفسه . وضمير (عُمَرَتُ) يرجع الى المقاصير المذكورة قبيل البيت
أو الى (الجلال) أي المنازل المذكورة قبل أبيات وعمُرُ المنازل في كلام البلغاء
أكثر ما يستعمل بمعنى سكنها ، وإقامة أهلها فيها . وعمروا المكان بالتخفيف
والتشديد جملة عامراً أهلاً بجلوهم فيه . وهذا هو المراد بقوله (عُمَرَتُ)
مجهولاً بالتخفيف وبالتشديد : أي إن منازل كسري وربوع إيوانه كانت
مسكونة أهلة بهم زمناً طويلاً ؛ أما اليوم فقد تغيرت ودرست وتحول الغرض
من بنائها : فيمد أن كانت تلك الربوع للسرور واللهو أصبحت للتمزي والتأمي
أي للعبطة والاعتبار . يراها المصاب الحزون فيدسلى ويتهمى ويتخذ من كسري
وقومه الذين رماه الدهر بكلكله أسوةً لنفسه فيصبر ويتجلد . والرباع كالربوع
جمع ربوع بمعنى الدار والمنزل ينزل فيه القوم أيام الربيع . ثم استعمل في
المنزل مطلقاً نزله في الربيع أو في غير الربيع . واستعمال (عمر المكان) بمعنى
أنهم جملة أهلاً بجلوهم هو الأغلب في كلام البلغاء أما في شعر البحري هذا
فيحتمل بل هو الأقرب تنازلاً أن يكون المراد بقوله (عُمَرَتُ) العبارة التي
هي البناء بالحجر والطين . أي أن تلك المنازل والربوع بُنيتْ وشيِّدتْ بقصد
اللهو واغتنام فرص السرور ولكنها أصبحت الآن خراباً يباباً للاتعاض والاعتبار .

(فلها أت أعينها بدموع موقوفات على الصبابة حبس)

يقول الشاعر: أما وقد زرت منازل كسرى وتسلّيت برؤيتها عن مصيبي
بمقتل (المتوكل) فقد أصبح من حقها عليّ أن أعينها فأذرف دموعي عليها .
وأجملها (أي أجعل الدموع) وفقاً محبوبته على الصبابة والأُمى . وذكر الإيغانة
بالدمع كثير في أشعار المتأخرين . وكان العرب ونساؤهم يعبرون عنه بالاسعاد
وهو الإيغانة والمساعدة على الندب والبكاء على الميت . وما قاله أبوتمام في
الإيغانة والاسعاد :

ما في وقوفك ساعة من باس تقضي ذمام الأربح الأدراس
فلعل عينك أن تُعين بمائها والدمعُ منه خازلٌ ومواعي

ومعنى الصبابة الشوق أو أرق الشوق . ويُريد بها هنا لوعة الأُمى التي
لدّعت قلبه برواية هذه الآثار . ووقَفَ وحبَسَ بمعنى واحد يقال وقفتُ
الدابة وحبستها ، ووقفتُ الدارَ في سبيل الله وحبستها ونحن نسمي الأوقاف في
بلادنا أوقافاً أما أهل المغرب فيسمونها أحباساً . وقول البجيري (موقوفات) اسم
مفعول من (أوقف) بالهمز وليس بفصيح بل الفصيح في الاستعمال (وقَفَ)
الثلاثي فكان الفصيح أن يقول هنا (موقوفات) . و (حبس) بضمّتين جمع
حبس بمعنى محبوس .

(يتبع)